بسم الله الرحمن الرحيم

بقلم: د. محمد عبد النبي الحفناوي

عضو هيئة التدريس بجامعة الأزهر الشريف

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه... وبعد،،،

فهذه إجابة مختصرة عن السؤال المذكور – منهجية الطلب - من وحي التجربة الخاصة، وإن كان في بطون الكتب ما هو أعظم وأجل وأنفع.

وحري بكل من سلك هذا الطريق أن يكون له طابعه الخاص من تجربته الخاصة، فلا ضير حينئذ من تبادل النصيحة والأخذ بركاب بعض، عسى أن يستعملنا الله بمنته وكرمه.

ويمكن اختصار كل ما أريد قوله من إجابة في معادلة رياضية، لا أنفك عنها كل صباح، وجدير بك أن تزين بها جدران مكتبتك فضلا عن جدران سعيك ..

(غرض مسيري + تأصيل منهجي + تحصيل مركب = نخبة مرتبة مثمرة)

هذه هي الإجابة عن كل هذه الأسئلة وما يدور في فلكها، وأدعي أن كل ما كتب في هذا الشأن إنما يدور حول هذه المعادلة.

الكثير من راغبي المعرفة يظنون أن القراءة أمر ثانوي في يومهم، يمكن أن يؤجل لأي سبب أو بدون سبب، وببعض التحصيل وقليل الأوراق، يظن أنه قد جاوز خط الخطر وأصبح على الجادة والصواب.

والحق أن هذا أعمق مراحل الفشل المعرفي، فالقراءة لطالب العلم كالشاحن للهاتف تماما، لا يمكن أن يأتي يوم تقول: إن الشاحن للهاتف شيء ثانوي، يمكن الصبر عنه لأيام.. هذا لا يقوله عاقل، فالشحن الدوري، وإلا توقف الهاتف وتعطل وفسد.

وإذا علم طالب المعرفة خطر ما هو قادم عليه وأهميته وعظمته عند الله تعالى، لأدرك حقا قيمة ما استعمله الله فيه، وكان على قدر نعمة الله عليه.

وأي محاولة كانت وستكون من الناصحين ما هي إلا تحفيزا لغرض موجود بداخلك، إن فقدته، أو إن لم يكن بداخلك أصلا، فلابد من إعادة النظر في طريقك كله.. أهو مناسب لك أم لا؟

الآن أولا: لماذا تقرأ؟ ما هو هدفك؟ ما غرضك في سيرك التحصيلي؟ لماذا تشتري الكتب؟ لماذا تجلس المجالس العلمية؟ لماذا تبحث عن العلماء والمصنفين لتأخذ منهم نسخا ومطبوعات؟ لماذا خطواتك كل يوم من الدروس وإلى الدروس؟

فتش بداخلك عن أول ركن من أركان المعادلة (**الغرض المسيري**) إن لم يكن لك فابحث عنه، أهو لله؟ أم للشهرة؟ أم للمناطحة؟ أم للمال؟ أم لحب الكتب وجمعها؟ أم للسمر والمؤانسة؟ أم للوظيفة؟ أم لوقت الفراغ الكبير؟ أم لماذا؟

لن أجيبك عن الغرض، لأنه إن لم يكن لك فصدقني .. كل شيء لا قيمة له ولن يثمر، لابد أن يكون منك وحدك، وقودك أنت، محركك أنت، نيران تغلي بداخلك تحركك أنت، تجعلك تواصل الليل بالنهار، الكل نيام وأنت لا تذق نومة، الكل يسافر ويمرح، وأنت منكب على الكتب تفتش وتحقق وتبحث وتتعلم، الدماء تسيل من أنفك وأنت لا تشعر من شدة الضغط ..

صدقني كل هذا سيحدث ـ لأني أعيشه كل يوم ـ وأضعافه ستحدث، إن كان لك حقا ما يحركك بداخلك ويهون لأجله كل غالي ونفيس، ونصيحتي لك: ابحث من أول خطوة عن غرضك أهو لله ولكتابه ولشريعته ولرفع الجهل عن نفسك وعن الدنيا ولعمارة الأرض التي أورثك الله إياها ولخدمة الناس وبرهم؟ أم لشيء آخر يحيك بصدرك؟؟؟ ابحث وجدد بحثك عنه كل يوم إلى آخر يوم.

وثانيا: ماذا أقرأ؟ الركن الثاني من المعادلة (**التأصيل المنهجي**) هناك مئات البرامج التعليمية التي تنص على مراحل طلب العلم، ولا أخفيك أني قرأتها كلها عبر سنين عمري، وكنت أحفظها عن ظهر قلب في مراحلي الأولى، ولكن هذا كله يدور في فلك واحد هو:

النظرة الشخصية بناء على خبرة الكتب..

وهذا لا عيب فيه مؤقتا، لكن مع الأيام لابد أن تكون لك وجهتك أنت في الكتب واختياراتك المنهجية.

ولن أعطيك هنا سلما معرفيا لتقرأ فيه على ترتيب معين، فهذا يطول جدا، لكن سأجيبك بعصارة كل البرامج التي كتبت على وجه الأرض..

- المدخل التأصيلي الأوليّ: كل فن له متن قصير يكون كمدخل للعلم، وهذا يدرس على يد متخصص، وإن لم يوجد فالأولى اختيار المتون والكتب المشروحة صوتيا.
- الكتب البنائية التالية: وهذه بمثابة الشروح للمتون، أو المرحلة الثانية للكتب المدرسية، وتكون فيها المعلومة أعلى نسبيا ليعلو بها ذهن الطالب قليلا.
- الكتب المحورية المركزية: وهي الجامعة لكل مسائل الفن وما يقابلها من الفنون الأخرى، وهي المرحلة الثالثة من الكتب المدرسية، وتكون أوسع وأشمل وأعمق، ويكون التعامل معها بالقراءة الدورية والتلخيص والمراجعة.
- التوسع في التخصص والتفريع: وهذه هي أمهات الفن التي حوت كل أصوله وفروعه وشروحه والنقد والطعن والرد والتحرير، وهي التي تشعل عقل الطالب وتجعله يتنقل بين العلوم كالبستاني بين الزهور.

وحقيقة من أفضل الكتب التي نظمت هذه القائمة، كتاب السبل المرضية، قرأته كثيرا جدا، وهو كتاب طيب ينفعك في وضع تصورك في بداية طريقك، لكن حتما كلما تعمقت ستجد نفسك تصمم برامجك الخاصة المتفردة، فلا تيأس ولا تقلد مطلقا.

وثالثا: كيف أقرأ؟ كيف ألخص ما أقرأ؟ كيف أستفيد مما أقرأ؟ الركن الثالث من المعادلة (**التحصيل المركب**) القراءة رغم أنها من المهارات التي تحتاج إلى تمرين وتدريب، وهناك عشرات الكتب التي ألفت في هذا الشأن، إلا أني أعتقد اعتقادا جازما أن القراءة لطالب المعرفة غريزة مثل الأكل والشرب، لا تحتاج إلى تمرين أو تدريب، فاقرأ كيفما شئت، حسبما اتفق، بأي طريقة، على أي هيئة، بأي كيفية، المهم أن تقرأ، وكل شيء سيتغير تدريجيا، لكن لا تجعل أي شيء يعيقك كحجة للتكاسل أو عدم القدرة، أو الدلع المعرفي.

سيحركك الغرض المسيري لتقرأ حتى لو كنت في فراش المرض ـ عافاك الله ـ اذن لتقرأ ولتقرأ ولتقرأ....

ولكي تحصل لك الفائدة الكبرى مما تقرأ:

- لابد أن تكون القراءة منضبطة (لا عشوائية)، متزنة (لا فوضوية)، نسبية (حسب وقتك أنت وعقلك أنت).
- قراءة المطالعة، ثم قراءة في السلم التحصيلي، ثم قراءة تخصصك الذي رمته، ثم قراءة في قضية ما عند الحاجة.
- اقرأ ووازن بين الكتاب والقلم: لتكن لك مجموعة دفاتر، ولها ركنها المقدس في مكتبتك.. الدفتر الأول: به معلومات حصلتها تخص تخصصك الأول، وجدتها في أي مكان في شتى أنواع مطالعتك. الدفتر الثاني: به الأفكار التي تطرأ على عقلك وتحتاج للسؤال عنها أو البحث فيها أو مناقشتها مع الكاتب. الدفتر الثالث: به ملخص الكتاب الذي تقرأه. الدفتر الرابع: فوائد الكتب. وزد من الدفاتر حسبما تريد.

ولكي تستطيع تلخيص الكتاب وتستفيد منه:

ليس كل الكتب تلخص، إنما الكتب المحورية في الفن فقط، وهذه تعرف بالخبرة، فبعد قراءة كل جزئية (كورقة أو مطلب أو مبحث أو فصل) اعرف الغرض الكلي من هذه الجزئية، وليساعدك الفهرس والمدخل في هذا، واكتب أهم النقاط المركزية التي تدار حولها الفكرة، فعند مجيئ وقت مراجعة دفتر التلخيصات كل فترة، أو عندما تريد الكتابة في جزئية معينة، يكون عندك فهرس عام بفوائد وأصول أفكار الكتب، فتذهب مباشرة للكتاب المسعف لك، ولتكن لك قراءة دورية لهذه الدفاتر.

وأخيرا: ستجد النتيجة الحتمية للمعادلة (**نخبة معرفية مرتبة مثمرة**) وصدقني هذا لن يكون من يوم وليلة ولا سنة ولا عشرة ولا عشرين، فجل أهل العلم الذين عرفتهم يشار إليهم، إذا عرفت طريقتهم في التحصيل وصبرهم على طلب العلم، لتوقف عقلك عن الاستيعاب تعجبا مما فعلوه..

مثلما لا تمل من تربية ومراعاة ولدك، مثلما لا تمل من البحث عن لقمة عيشك، مثلما لا تمل من فعل ما تحب أو فعل ما تجبر عليه، ومثلما تنظم وقتك بكل ما تملك لتستخرج منه ساعة لأكل أو شرب أو مؤانسة أو مجالسة أو محادثة، ومثلما تنظم وقتك بصلة أو بر أو سعي أو نوم أو أو أو .. مثل هذا كله ليكن سعيك في التحصيل.. وإلا اترك هذا الطريق لأهله، واخدم دينك بطريق آخر..

ولا تظن أن ثبات المعلومة يكون في أول الطريق للعلم، فهذا مستحيل إلا لمن رحم الله، لكن هذا يظهر تباعا بكثرة التحصيل وازدحام العقل والقلب، فلا تتعجل ولا تيأس بكثرة النسيان، فاقرأ وكرر ما تقرأ وكرر ما تحفظ ولا تنظر لأي شيء آخر.

وليكن مثال لقمة العيش التي لا يظهر أثرها على جسد من أكلها خير رفيق لك ...

وختاما: هذه إجابتي من بعض تجربتي، ليس نصا صارما، ولا حتى خطة مرتبة، ولا قاعدة مركزية يجب العمل بها، إنما هي مجرد نصيحة، إن وجدتَ فيها ما ينفعك، فهذا ما أردتُه، وإن كانت الأخرى، فالله أسأل ان يجري الخير على يديك أنت للأجيال الضعيفة المبهمة.

وفي النهاية: عود نفسك على الجد والعزم والصبر في الطلب والسعي، واقرأ واقرأ ولا تنقطع.. اقرأ وإن كنت على فراش الموت..

والحمد لله رب العالمين......